أزمة البطل المعاصر

بقلم مطاع صفدي

القسم الثاني

العربي الثوري المعاصر

تمهيد

عانى العرب ، في تجربتهم الماضية ، نموذجين من الثوري ، يبدو ان احدهما يناقض الاخر ، وذلك بين الجاهلية والاسلام . اولهما ، في الجاهلية ، هو نموذج الثوري الفنان ، وفيه تتمثل وحدة الانسان والطبيعة في سبيل النشوة البطولية . وثانيهما ، في الاسلام ، هو نموذج الثوري الاجتماعي ، وفيه تتمثل من جهة انفصال الانسان عن الطبيعة واتحاده بالمطلق ، وذلك على اساس تنظيم مجتمع اسلامي يعمر قلبه اليقين وينصرف عقله للمعرفة الكلية ، وتنتظم طبقاته بحسب تسلسل درجة القداسة والتقوى .

ولكننا اذا تصفحنا الامر عن كثب ، وجدنا ان هذا التناقض بين النموذجين شكلي في حقيقته وسطحي . فكلا الاندفاعين الجاهلية والاسلامية انما صدرا عن ذات الوجود العربي نفسه في مرحلتين من تفتح شخصيته التاريخية . وهما مرحلتان تمتان الى هذا الوجود ذي الطبيعة الاساسية التي تتناقض في تطورها ، بقدر ما تفصح عن تكاملها ونموها . والواقع اننا نستطيع ان نجد هذه الطبيعة ، الثابتة في ينبوعها الاول ، تقوم على نزوع عنيف نحو المثل الاعلى . والنزوع الجاهلي كان مثله الاعلى خلق الفرد على صورة البطل . والنزوع الاسلامي كان مثله الاعلى تنظيم الانسانية بحسب نظام ميتافيزيقي يحقق السلام المطلق .

وفشل الاول ، او بالاحرى استنفد امكانياته ، عندما كون افرادا احرارا، اسطوريي البطولة ، ولم يستطع ان يكون مجتمعا موحدا حرا . وخاب امل النزوع الثاني (الاسلامي) عندما حاول ان يفرض نظاما وحدويا على انسانية ممزقة الاهداف ، هرمه في اكثر جذورها الحضارية،متنوعة الشخصية والثقافة والاتجاه ، وقضي على الفرد وانسحق كيانه امام القدر وفكرة المصير السلبي،الذي اشاعته روحانية ، من ثقافات،محتضرة، انصبت عليه من الغرب الهليني والشرق المتصوف . وكان من نتيجته ان فني العربي في بحران الشعوبية وفشلت مثله ، وتحول عقيدته في النهاية الى تبرير طويل كئيب لانحداره وفراره من الدنيا .

ونمت بذلك دورة تاريخية حافلة كاملة ، واصبح الطور الاخير من حضارة العرب المنصرمة نوعا من الدوران حول الذات واجترار انواع الابداعات السابقة ، ويدل على ذلك الادب المصطنع وكتب الشروح اللامتناهية لكتب عصر الانتاج السابق . هذا عدا عن غياب القيادة العربية نهائيا من المسرح السياسي ، وتفشي التجزئة بكل اشكالها من سياسية وطبقية اجتماعية ، وعائلية ، وعنصرية ، ونفسية . وساد السكون ارض العرب ، ودخل الشعب في صمود الظلام ، ولم يبد نامة طيلة العصور التركية .. ولم يبق على المسرح الا الخليفة العثماني، رمز الانحدار العربي ، وحاشيته وحروبه وغلمانه وجواريه .

وكما يتكون كل موجود من سديم البداية ، وينتهي كذلك الى سديم انطفاء ويفقد كل حركيته وتشكلاته الانسانية ، كذلك غاب العرب في سديم انطفائهم . غابوا ولم يزولوا . وتلك هي خاصة الامة العربية التي تعطيها سمة الخلود . فلكم قدمت امة العرب على مسرح التاريخ من حضارات متتابعة ، وكانت بين اندفاعة واخرى يخبو لهبها وتختفي حركيتها كأنها قضي عليها الى الابد ، ولكن عودتها الى ذاتها ما هي الا فترة تجمع فيها قواها وتنضج لها دورة اخرى من الامكانيات ، وتنتظر دورها في مناسبات التاريخ الكبرى لتقدم نوعية من الحلول والمفاهيم والاعمال (رسالة نظرية وعملية) تناسب ازمة العصر ، هذه النقطة التي تتقاطع عندها مشاكل الحضارة في فترة انقلاب وتصفية ، تحول اتجاه الانسانية وتنهض بها لمسؤولية جديدة .

وعصرنا هذا هو عصر بداية جديدة لدورة اخرى ، ستنبثق خلالها الفعاليات الحضارية للامة العربية تلقاء اقسى ظرف تصفى فيه خطوط التاريخ الانساني كله . وتتحرك الامة العربية ، وتدفع بحركتها تدريجيا عبر المجال القومي والعالمي ، حتى تبلغ درجة تستقطب فيها رعب العالم وامله في الوقت ذاته . ومن خلال الاحداث الكبرى التي لعبتها اجزاء جبارة من الامة العربية تتكشف حقيقة البعث الجديد الذي يعانيه وجدان الامة . انها حقيقة ثورية ، من نوع فريد رهيب ، ما عرفته ثورية العرب سابقا ، ولا تكاد تعرفه ثورية الغرب كذلك . ولعل خصوصية هذه الثورية الرهيبة تأتي من نموذجها الغريب . وهو نموذج يكاد يكون مخلوقا من العدم ، تتصالب فيه مثل جبارة من الصعب ان تجتمع في نموذج واحد ، ولكنها قد تلاقى كلها في ذروة التصالب ، بطابع مطلق من السلبية . فتتفق اذن جميعا في انها مثل سلبية . ولكن من فعاليتها السلبية هذه تتولد ابعاد نضالية جديدة في الحياة والابداع ، وتتفتح آفاق ايجابية للعيش والعمل معا ، ليس بالنسبة لامة العرب ، بل للعصر الانساني ، كعادة كل انبعاث عربي في كونه دائما انبعاثا محملا باتجاه انساني ، ان له رسالة شاملة .

فمن هو هذا النموذج الثوري في العربي المعاصر ، ما هي ملامحه ، وما هي ابعاده المأساوية ، وكيف ينمو من خلال اصطراع عناصر الاصالة والزيف فيه وما هي مستوياته التي يتصاعد من احدها الى الاخر ضمن تجربته القلقة الغامضة ؟

عربي العصر ثوري اشكالي ، انه ينطلق في حركيته الممزقة من أناه الفردية اولا . واول ما يفعل فانه يعلن عن ذاته بهذه الصرخة :

انا ثوري !

أي انه يبرز لذاته وهو ضمن هذا الوضع الوجودي . فهو يؤكد حقيقته بهذا اليقين المبدئي الذي لا يحدد شيئا بعد ، وان كان اشارة

احجز نسختك
من عدد الاداب الممتاز
((الادب الثوري))

ملهمة لهذا الكائن ، وما يمكن ان يتوقعه هو من تأكيده الدرامي ذاك. وفي هذه المرحلة من تجربته لابد لنا من ان نحلل فيه صيغه الوجودية المختلفة التي يتبدى من خلالها ككائن ثوري . وسنرى ان هذه الصيغ ليست في حال من السكون والجمود ، بل انها انبثاقات داخلية غير مستقرة ، لا تلبث ان تبرز حتى تتلاشى ، وهي في صراع مستمر ضدها وضد ما يعاكسها في الوقت ذاته . وفي اعماق هذا الثوري ستتلمس ديالكتيك الوجود والحرية في اعنف مظاهره قسوة وشراسة ، ونبلا ايجابيا مع ذلك .

غير ان هذا الديالكتيك ، سيصير الى مرحلة ذاتية ثانية كذلك ، وفيها يعي الثوري تجربته الفردية ، ويطرح مشكلة ثوريته ، مقيما اياها اولا بحسب معطيات واقعه الثوري ، وايجابيته الخاصة تلقاءه . وسيسأل هذه المرة الى جانب تأكيده الخام الاولي (انا ثوري) سيسأل (لماذا انا ثوري ؟) . ههنا تنضج فعاليات الديالكتيك الوجودي في اعماقه . ولا بد لها من عملية وعي شامل لها وجذري . وهو وعي سيكون من طبيعة هذه الثورية ذاتها ، اي انه ليس وعيا نهائيا . بل هو نوع من الانارة الداخلية التي تشع من عناصر الثورة ذاتها ونحو ذاتها . فلا يمكن ان ينفصل وعي هنا عن موضوعه ، ولقلق الموضوع وحركيته فان وعيه كذلك قلق وحركي . فلا حدود ثابتة في معركة من اجل ان اكون انا الحر . وكل بطولة تتخطى ذاتها ، وكل حرية تسخر من حرية اخرى ولدتها .

(لماذا انا ثوري) موجه الي اولا ، وهو لايشير الى اي تجريد او انفصال تأملي عن تجربتي . انني في سياق تجربتي اود ان اعيها ، اي ان احيط بها ككل ، وبحركيتها . وهنا كان وعيي في حقيقته موقفاقيميا، ليس في حدود قيمة مفردة واضحة بعينها ، ولكنه وعي في حدود الاطلاق القيمي ، فقد تجاوز تبريره الاخلاقي الجزئي . وهو ينزع الان الى تبريره الكوني من حيث انه هل ينبغي له ان يوجد ماهو موجود عليه او الا يوجد اطلاقا . فانا لا اتساءل عن مبرر عقلي لثوريتي ، بقدر ما الح في تقدير مدى الاصالة في هذه الثورة ، وما يمكن ان ينبثق عنها من عمل حر حقيقي . لان ثوريتي قضية لاتخص احدا غيري اولا ، وانا مضطر ان انقلب عليها فاحصا بين ان واخر ، لادرك معطيات نموها الجديدة ، واقيمها من حيث انها هي هدف ذاتها دائما . وفي موقف الثوري ليست مسألة البواعث ، لها ذات اهمية الثورة نفسها ، فقد تكون ثمة بواعث او لاتكون. لان كل باعث على الثورة هوجزء من الثورة ، هذا اذا ماتذكرنا دائما ان الثورة التي نعنيها ليست هذا العمل الجماهيري التخريبي الموقت ذا الطابع السياسي والظرفي . وبالتالي ليس للثورية اهداف مرمية الى افق المستقبل وكحد زماني لها . لان كل ثورة هي هدفها . وهو جزء عابر من نمو الثورة ذاتها وليس جدارا تتوقف عنده .

انه يتساءل لماذا انا ثوري بقدر ما اكون انا ثوريا في موقفي الذاتي الشامل . ولكن لايفهم من هذا انه ليس ثمة شروط واقعية محيطة بالفعالية الثورية . بل هذه الشروط موجودة دائما ، ووجودها كذلك ليس على مسافة من الثورية . لان كل ثورية موقف في العالم المحيط كاشياء ، والمبطن للموقف الثوري كشرط مطلق . فلا تخلو كل ثورية من ابعاد مجسمة حولها . ولكن الخطأ هو اعتبار هذه الابعاد هي حدودها الثابتة حقا . بينما هي مجرد تجسيم اضفائي للفهم الجزئي الذي يساعدنا على اعطاء الثورة ضمن اطارها الاجتماعي اليومي (١)

ويتبع الوضع التساؤلي الثاني هذا ، وضع تساؤلي ثالث وهو : انا الثوري ، كيف اثور ؟

ومن الواضح كذلك ان هذا السؤال لايطمح في تبيان الطرق الثورية المجدية . انه سؤال يقع مبدئيا على شيء متحقق بالفعل . فالموقف الثوري هو الذي يطلق هذا السؤال حول موضوعه هو بالذات . ولذلك فانه يتطلب جوابا وصفيا للثوري وهو في حال التحقق والتنفيذ .وهو يفترض ان كلية الثورة تتابع حركيتها الحية من تلقاء طبيعتها الخاصة . فما هي هذه الطبيعة اتكون من صنع ارادة عابثة ، ام انها معطى قومي وميتافيزيقي للعربي الانسان في هذا العصر . وما معنى ان تكون الثورة قومية ، وما هي سوالبها كالثورة الطبقية الحقدية والجزئية السياسية المبتسرة . وهل الثورة موقف عارض ام بدئ ومستمر . وما هي المراحل التي تمر فيها الثورية من داخل ، وما هي افاقها الوجودية والانسانية .

وهكذا يتم ويتكامل وعي الثورية بصيغها الثلاث :

انا ثوري !

لماذا اثور ؟

كيف اثور ؟

انا ثوري

(انا ثوري) تلك هي الصيغة الخام التي ابرز لذاتي من خلالها ، قبل اي ايضاح اخر . وهي صيغة تحمل عنف التأكيد وسذاجة الانطلاقة الثورية الاولى . ولكنها ستظل النواة الايجابية للموقف الثوري كله مهما طرأ عليه من تطور ونمو وتعميق . انها بمثابة التأسيس الوجودي للذاتية العربية ، عندما تنقلب هذه الذاتية على شروط الواقع المضاد للموقف الثوري ، في جموده وسديمه . ومن هذه الصيغة الاولية سيتحدد ارتباطي بالامة . انها الرمز الذي يميزني عن الواقع الفاسد المحيط بي في عين ذاتي رمز لايحدد اي شيء ، بقدر مايفصل فحسب بيني وبين واقعي . فصيغة (انا ثوري) تساوي ، في هذا المستوى ، (انا منفصل). ويمكن ان نقبل الان موقتا ، وفي بداية دراسة هذه الصيغة ، ان الانفصال يقع بين (الانا الثوري) وبين مادعوناه (الواقع الفاسد) ، غير اننا سنرى ان هذا الانفصال لن يبقى على درجة واحدة وفي مستوى واحد ، ولن يقف عند حد التعميم كأن نقول (الانا الثوري) و (الواقع الفاسد) . اذ اننا سنلقى فياعماق هذا (الانا الثوري) حركة مستمرة ، تربطه بالواقع الفاسد ، كما انها تضع هذا الارتباط في علاقات جدلية متناقضة ومتغيرة ، تتجاوز اوضاعها ، وتخلق في كل لحظة نمو صيغة وجودية جديدة تتطلب موقفا سلوكيا اخر ، وبالتالي تطرح مشكلة العلاقة الثورية طرحا ثانيا ، فليس هناك وضع ثوري معين يمكن ان تتجمد فيه هذه العلاقة الحركية المأساوية بين الانا الثوري والعقبات التي يفترضها مقابلا له . فلنبدأ اذن بالوصف الاولي لانبثاقة (الانا الثوري) ، كيما نستطيع ان نحدد بعض ملامحه العامة ، ثم نتابعها بالتحليل متقصين كل الصيغ التي يمكن ان تحدد العلاقة المأساوية بين (الانا الثوري) وبين عالمه المعترض عليه .

ان الانبثاقة الاولى للأنا الثوري هي محض تأكيد عفوي ، ينطوي على اتجاهات سلبية وسالبة مختلفة ، تترى بدون انقطاع ، في سبيل

(١) كل هذه النقاط المكثفة سنرى لها ايضاحا فيما سيتبع من عرض

ان يتكامل موقف هو في ذاته غير متكامل ، اي لايبلغ قط درجة توقفه ما دامت العلاقة المأساوية قائمة بين ثوريته والواقع المثار عليه .

وفي الحقيقة ان (الانا الثوري) هو في حد ذاته صيغة مشتقة عن صيغة اعم منه ، وبالتالي افقر مضمونا ، وهي(الوجود – في – العالم). اذ ان الواقع الانساني لايمكن ان ندركه الا من خلال هذه الصيغة ، وهو انه قبل اي تفكير او تبرير فانه موجود – في – العالم . وكما بينت الدراسات الفينومنولوجية والوجودية فان مثل هذه العلاقة هي الاساس الوجودي للواقع الانساني ، وهي بقدر ماتهم مشكلة البروز في العالم فانها لايمكن البرهنة عليها ، لانها هي النقطة الاولى التي تنطلق فيها كل التعليلات الوصفية الاخرى للصيغ الوجودية . ولقد اوضح (هيدجر) بصورة خاصة كيف ان الوجود – في – العالم يمكن ان يبرز خلال شكلين ، اولهما شكل لا مشروع غير حقيقي ، وهو وجود الـ ((هم)) الضائع في اهتماماته بين ادواته الشيئية ، والهارب من مواجهة تعليل معنى وجوده في العالم هذا التعليل الذي سيحمله عبء امكانياته الخاصة ومسؤولية تحقيقها تلقاء الامكانية الكبرى ، امكانية اني موجود سيموت . وشكل مشروع حقيقي ، لم يحدثنا عنه هيدجر باكثر من اشارات وتعريفات عامة ، لانه في حد ذاته ليس موضوعا للدرس ، بقدر ما هو تجربة معاناة . ان هذا الشكل من الوجود لايقدم لي مضمونا معينا اذا ماتبنيته حصلت على هذه القيمة المشروعة في نظر ذاتي ، بل يضعني في قلب المأزق ذاته دون ان يبين لي الحل . فكأنه اذن يقوم على منهج او طريقة للجهاد الوجودي تلقاء كشف معناي بالنسبة لمطلق الامكانية ، من خلال تحقيقي لامكانياتي الجزئية المحدودة .

و (الانا الثوري) هي في حقيقتها ، اذا اردنا ربطها بالصيغة الاعم (الوجود – في – العالم) كانت صيغة خاصة من الشكل الثاني للوجود المشروع ، تقدمها كذلك تجربة خاصة ، يعاني اشكالها الكائن العربي الحديث الذي يمت الى عصر البعث . ولهذا فان هذه الصيغة وتجربتها البعثية التي تنبثق عنها ، بحاجة الى ايضاح يخصهما وحدهما ، وذلك بالاستناد الى تحليل المعطيات الحية التي تقدمها المعاناة اليومية المسؤولة لمفاصلها ، واوجه تحققاتها ، والمشاكل التي تثيرها اثناء هذا التحقق ..

غير انه اذا كانت (الانا الثوري) صيغة مشروعة من الوجود المشروع في التجربة البعثية المعاصرة ، الا ان لها كذلك تناقضاتها الخاصة التي تحتم في كل ان ، من نمو التجربة ، طرح مشكلة تقييمها من حيث اصالتها وهجنتها . وسنرى ان كثيرا من الاشكال التي تبرز خلالها صيغة (الانا الثوري) تمت الى هجنة فاجعية ، وانها كثيرا ماتتعرض هي ذاتها للرفض من قبل ذاتها . او انها قد تتحول الى مصدر قلق عقيم ، يؤذن بفشل التجربة كلها .

فكيف نواجه الان هذه الانبثاقة العفوية الاولية في عالم التجربة البعثية (انا ثوري) .

لا بد لنا ، قبل كل شيء ، من ان نصعد من ابسط المعطيات التي تبرز من خلالها امام وعينا ، فنتساءل من اي نوع من الثوريين يكون هذا الانا الثوري؟

وفي الحقيقة هذا السؤال ينقسم الى شقين : شق يتطلب منا ان نقارن الثوري الذي نقدمه هنا بالنماذج الثورية التي سبق ان عرضنا لها موجزا في الغرب ، وهذا ما نتجاوزه الان لنهاية الدراسة ، والشق الثاني يدفعنا الى حصر تحليلنا في الملامح الواقعية الحية التي ينجلي من خلالها هذا الثوري وهو في صميم الفعل والمعاناة . وهذا ما سنتناوله الان مباشرة .

من أكون من الثوريين ؟

ان الصيغة الاولى (انا الثوري) تقدم لي الجواب ، وهي انني : أنا الثوري ثوري فردي ، وفي الواقع ان الفردية هي بدء الانقسام في كتلة السديم التي يتشخص من خلالها الوجود العربي قبل ان تحسه تجربة البعث بحركيتها وتمزقها .

ان بروز الفرد من سديم الكتلة هو غاية الفردية . وبين ان يتشخص الانسان كموجود فردي او كموجود سديمي تتضح مشكلة الثورية وهي في صراعها من اجل ان تثبت سلبيتها وايجابيتها معا . فها نحن امام طرفين متناقضين من الوجود : الفردية والسديمية . ولا يكاد يفهم طرف بدون الاخر . فالتجربة اليومية تقدم لي حدسا اوليا فقيرا ، وهو ان كل شيء متداخل في كل شيء ، وانا ذاتي جزء من هذا التداخل الاعمى . فكان هناك كتلة غفلا ، مؤلفة من مادة هلامية ، تبتلع كل تشخص محدد قد يتضح من خلال حركتها العجينية حول ذاتها ، فلا تبقي شيئا خارج هلاميتها ، وبالتالي لا تسمح لهلاميتها ان تتضح من خلال اية سمة الا هذه السمة ، وهي ان كل شيء موجود وفي ذات الوقت غير موجود ، لا بالمعنى الديالكتيكي ، بل بمعنى هذه الحال من الميوعة غير المائعة تماما ، ومن الهلامية غير الهلامية تماما . فهي تكاد ان توجد ولكنها تقصر عن ان تبرز من خلال اي تعين .

ان السديمية لا تشبه حالة الفوضى البدئية المعروفة في الفلسفة باسم Chaos فهذه الاخيرة حالة مجردة يفترضها الذهن المتأمل كيما يحدد مرحلة سابقة على التكون ، ليست هي بالوجود ولا بالعدم ، وانما قد تتضمن امكانية الاثنين معا . انها مرحلة ترمز الى اللامعقولية المطلقة التي تسبق عمل الفكر ، وهي اشبه بالمادة الخام القابلة للتشكل حسب اتجاه الذهن في التجريد والادراك . واما السديمية ، التي نتحدث عنها ، فهي في الواقع ليست مرحلة سابقة على التكون ، كالاولى ، وانما هي تعبر عن مرحلة لاصقة بالتكون . وهي بالنسبة للتكون الذي سبقها تشكل هبوطا وانحلالا ، فهي لا تعين المعين ، ان صح القول ،اي هذه العملية المتقهقرة التي ترجع كل متشكل ومحدود الى حال اللاتشكل واللاتحديد . فتسلب الاطر ، وتهدم الاشكال ، فتميع المضامين وتسيل على بعضها ، وتنطمس معالمها ، وتتداخل هكذا حدودها ، حتى تتحول كلها اخيرا الى كتلة لا اسم لها ، لا قيمة لها ، لا تحديد عقلي يشملها ، مجافية لكل صفة ، انها هي ، وكما هي ، شيء غير معقول في ذاته ، يدهم الوعي الانساني . وهو لا يحافظ على مجرد وجود حيادي من الوعي ، بل انه ينزع كذلك نحو طمسه ، وجذبه الى بحرانه ، ان السديمية من طبيعتها انها لا تملك نزوعا نحو التكون كماهي سديمية الكؤوس . بل ان نزوعها كله عبارة عن حركة طغيان وجذب نحو الداخل ، وهضم في الداخل لاية صيغة تكوينية . حركة نزوع نحو اللاتكون ضد النزوع نحو التكون .

ويمكن ان نقارن كذلك وجود السديمية ، بوجود الـ (هم) عند (هيدجر). فالهم تعبير عن الغياب ، بمقابل الحضور الذي يمارسه الموجود المشروع وهو يواجه الشرط الانساني القائم على العدم . ويصفه (هيدجر) بانه وجود لا شخصي ، يشمل كل الناس الاخرين ما عدا الموجود المشروع (Dasein) الحر . هو قائم في حياته اليومية على ممارسة المقاييس الوسط في كل شيء ، فلا يقبل لا الشاذ ولا الغريب . وفي سبيل

(1) La PH. de M. Heidegger P. 64 - 79

تعميم هذه المقاييس يفترض شخصية وسطا كذلك ، ويطالب الكل بان يتقمصها . والفرد عوضا من ان يواجه امكانياته الخاصة ، ويعاني أزمة وجود ، فانه يفر من القلق الى الامان بان يتقبل كل الافكار الوسط ، كل العواطف والمفاهيم المتداولة من الهم ، وبهذا يرتاح من جهة ، كما انه يتخلص من عبء مسؤولية كبرى وهو ان يكون ذاته الخاصة وليس ذات الكل .

فما هي علاقة هذا (الهم) بوجود السديمية الذي نحن بصدده الان ؟ من الواضح ان هيدجر في هذا المصطلح يريد ان يحدد لنا وجود السواد الاعظم من الناس ، الذين يتخلون عن شخصيتهم الفردية ، ويستعيرون شخصية الجماعة ، ويتبنون تراثها في كل فروعه ومستوياته ، وهم هؤلاء الذين لا تجربة وجودية خاصة بهم ، وبالتالي لا عمق ميتافيزيقي لهم .وهو في هذا التحليل الرائع انما يستند كذلك الى ما كان اشار اليه كيركيجارد في مصطلحه الخاص (Plebs) كما بين ذلك جان فال في كتابه عنه . وما قصد كذلك كير كيجارد بهذا الا ان يصنف الافراد الوسط الذين لا يملكون اي اشكال شامل ، اللهم الا ما يقلقهم بالنسبة لحاجاتهم الاولية حتى قال كيركيجارد في مذكراته : « يوجد اناس في الحياة كانهم احرف نداء في الخطاب لا تأثير لها على العبارة .(1)» ان امثال هؤلاء يؤلفون في الواقع عقبة الحرية .

غير ان هذه السديمية التي نعنيها هنا ، وان كانت تبدو انها شكل خاص من (الهم) لا يعرفه هيدجر ، لان الحضارة الغربية التي يعيش فيها لم تقدم له مثل هذه التجربة ، الا انها مع ذلك تختلف عنه . وهو اختلاف يبدو لنا جيدا عندما نتامل خصوصية التجربة العربية مجردة . صحيح ان كلا من السديمية و (الهم) يمارس نوعا من الطغيان المستبد تلقاء الفرد الذي يحاول ان ينفصل عنه ، الا ان الوجودي الهيدجري تنتهي محاولته عند حد ،الالتقاء بحريته التي يحققها في عزلته السلبية . واما الثوري العربي فهو لا يكتفي بالانفلات من قبضة السديمية بل ينقلب ضدها ، مناضلا اياها ليس في اعماقه الفردية فحسب ، بل في اعماق الذوات الاخرى ،المحيطة به ، لان الثورية العربية ، رغم انها فردية ، الا انها تحمل طابع التحريض لان يكون كل انسان فرديته الحقيقية ، اي ان يخضع لشرط العربي المشروع ، ولا شرط الا ان يكون العربي الثوري . فالسديمية العربية اذن هي شكل خاص من (الهم) ، لانها تلتقي معه في جذورها الوجودية . ولكنها مع ذلك تختلف عنه ، في كون السديمية معرضة هي نفسها للهدم ، في كل لحظة تنبثق تجاهها ثورية اصيلة ، فتنتقل الى صميمها وتبعثر تكتلها المتخثر . وفي كون هذه السديمية افظع بطشا في طغيانها ، واقرب الى ان تكون كتلة مادية فقدت جميع عناصرها الانسانية كما سنرى . واذا كان (الهم) صيغة مطلقة للوجود اللامشروع بالنسبة للانسان ، فانه بالنسبة للعرب يتحمل جميع سوالب الوجود القومي المقاوم للثورية . وهكذا رغم مادية السديمية فانها تتزمن ، وينظر اليها من قبل الثوري على انها من صنع الماضي ، ليس الماضي الانساني ، بل هذا الماضي ذو الخصائص المحددة الذي كان لامة معينة خلال تاريخها القومي الذاتي. انها من صنع (الهم) الماضين. واما الهم الحاضرون ، فهم الذين يتابعون ما صنع لهم . انهم مخلوعون عن ذواتهم ، يحيون في الحاضر ، ولكن الحاضر

ـ التتمة على الصفحة ٢٨ ـ

(1) J. Wahl : Etures Kierkegardiennes P. 497

قصيدة وفنجان قهوة

مقهى ، ووجوه تختنق
وعيون ، يأكلها القلق
نظرات ، تقفز هاربة
أبدا ، وخطوط تنسحق
ولفافة تبغ ، تحترق

*

ضوضاء ، تغرق في ضوضاء
وتغط ، بغفوتها ، الاشياء
كسل ، يتمطى ، من خدر
وفراغ ، يختطف الاضواء
ونصال ، ترقص جائعة
والعالم ، مصلوب أشلاء
تتسكع آلهة ، حمقاء
ولفافة تبغ ، تحترق

*

وتفر طيوف ، تنطلق
والوهم ، زجاجي الق
والحلم بزاخر لجته
انهار فراش ، تصطفق
وتساقط اجنحة بيضاء

*

يا كهف الزئبق ، يا فنجان !
يبتلع الوحدة ، والاحزان
رأس ، تتدحرج طافية
ومحنطة ، بسحاب دخان
وترجرج وهج ، محتبس
وتلوى خيط ، من الوان
ولفافة تبغ ، تحترق

*

مقهى ، ووجوه تختنق
وحروف تسقط ، باردة
وجفون ، يمضغها الورق
جيف الالحان ، بغير دماء
تهوي ، متكدسة صفراء
وصنوج اليأس ، مولولة
والفكرة ، أسوار صماء
والموت ، ظلام منطبق
والريح ، تموء بكل مكان
يا كهف الزئبق
يا فنجان(*)

حمص — عبد الباسط الصوفي

(*) من مجموعة « ابيات ريفية » المعدة للطبع

أزمة البطل المعاصر

ـ بقية المنشور على الصفحة ١٦ ـ

يسجل بالنسبه لهم مجرد زمان آلي . وزمانهم الحقيقي هو محض تكرار. نحن ندعون مجازا بالماضي. واما حقيقته فهو انه بدون ابعاد على الاطلاق ، وهذا هو زمان الزمان ، انه شبه بالامتداد المكاني . لانه وقت واحد بنكرر ، كالنقطة التي تتكرر في المكان ، فتؤلف المساحة او الامتداد المتجانس .

ولهذا كانت مهمة العربي الثورى مضاعفة ، فهو عليه ان يتخلص من الـ « هم » باعتباره موجودا انسانيا ، وعليه ان يتخلص من السديمية العربية ، باعتباره انسانا قوميا . فكل ثورة اذن سيمارسها الانسان العربي انما تحتمل هذين الهدفين الموحدين في هدف واحد. وهذا ما سنظل نقصده كلما تحدثنا عن السديمية . اي انها تشمل نفسها ، وتشمل جذرها الوجودي الشامل الذي تشترك فيه كل انسان بصرف النظر عن اوضاعه القومية والحضارية ، وهو الـ « هم » .

من خلال ما تقدم قد اتضحت لنا بعض خصائص (السديمية) بمقارنتها بما يشبهها ، ونستطيع الان ان نتابع دراستها . قلنا ان السديمية ليست مرحلة سابقة على التكوين ، بل هي نهاية تكوين انحل وتهدم كخصائص ومؤسسات انسانية محدودة الملامح . وهو التكوين القومي القديم الذي فقد صلته بخالقه ، واستقل عنه ، وتكتل كشيء مكدس من مستعملات الحضارة المنهارة . والثوري اول ما يعي فانه يعي مفارقته لها ... انه ليس منها ، وهي ليست منه . يحس بغربته عنها ، وهي غربة تقوم على عدم التعرف وعدم التعاطف معا . فالسديمية في اساسها شيء لا كالاشياء ، انها لا تشغل حيزا في المكان . ولا تؤلف جزءا من عالم الامتداد الخارجي . ولكنها تربض ... هنا في الداخل ، على الصدر . فهي ثقل قبل كل شيء .. ثقل ليس له وجه او تحديد ... وهذا الثقل هو ما عبر عنه ميشيل عفلق في مطلع انشاء الايديولوجية البعثية بكلمة اجتماعية هي (الواقع الفاسد الرابض على صدر الامة). ان النظرة الاجتماعية هي التي تسمي السديمية بواقع ، وهي التي تقيمه بالسلب ، فتصفه بالفساد ، وهي بالتالي تحدد علاقته بالبعثي ، كثقل رابض على صدره . والبعثي يعاني تلقاءه شعورين متناقضين انه يرفض الخضوع لثقله ، ككتلة جاثمة على صدره ، وبالتالي لا بد له من الاحساس الدائم الرهيب به كيما يرفضه باستمرار . ان مكان السديمية ، باعتبارها هذا الثقل اللامحدود ، هو على الصدر دائما ، على المتنفس الخافق . ولذلك كان الثوري في صميم السديمية هذه . ومن الصميم يتحملها ، ومن الصميم يرفضها . فهي مادة حربته ، مادة غير مطاوعة ، وهي عقبة ثوريته ، عقبة لا تزول الا لتنقلب الى عقبة اكثر عملقة وابشع تعاملا وحشيا مع اعدائها الثوار . ولا يمكن ان تزول ، والا لانتهت هذه الثورية ، الى ثورية جزئية ، موقتة . وانقلب البعث من موقف شامل انقلابي ، الى موقف اجتماعي عابر .

وفي الواقع كل عقبة محدودة انما تفترض وجود العقبة غير المحدودة. ومن هنا كان يصعد موقف الثوري العربي من النعين الظرفي الى الاطلاق الوجودي . اي من كونه ثائرا ضد هذا ـ اي الشيء المعين ـ الى ثائر ، لا من شي ولا ضد شيء ، الى ثائر فحسب .ثائر لانه ثائر .

وفي كل لحظة يستطيع الثوري ان يضغط ميوعة هذه السديمية ويعطي لها وجها واضحا ، فانه لا يفعل اكثر من وضع نقطة ، نقطة موقتة عابرة جدا وهو في هذا انما يفر من مواجهة اللاتعين ، من خوف من اللا محدود ، من قلق من اجل هذا الذي لن ينتهي الى وضع اخير جامد .

وبالمقابل ، عندما يحدد وجها للسديمية ، فانما كذلك يحدد ثورته ضمن نموذج يومي . وهو نموذج لا يلبث حتى يحطمه ، لانه ليس هو كله . ان الوصف اليومي قد يسمي هذه السديمية باسماء شتى كالتقاليد الرجعية، والتجزئة السياسية ، والاستعمار والاقطاع الخ.. وهي في الواقع تسميات مباشرة لها رصيد مهاجم دائم ، ملتصق ببنية الثورية من داخل ، ولكنها لا تعادل الثورية كبنية وجودية ، شاملة مستقلة .

فهي قد تؤلف مجالها اليومي المشخص ، وتدخلها في هالة من التبررات المعقولة ، ولكنها لا تكافئها نزعة نحو الشمول ، واستغرافا للمصير الذي لا يحد ولا ينتهي . اذ اننا رأينا ان بنية الثورية تتكون في صميم السديمية ، لا تلتصق بها من خارج ، ولا تدهمها كقدر مجهول . وكل انتصار تكتبه هذه الثورية ، لا يكون عن طريق مقارعة عقبة جزئية من السديمية ، بل بمناضلة السديمية ككل ، من خلال ثقلها غير المحدود على الوجدان الخالق القلق . حتى ان هذا الانتصار ، في ديالكتيك الحرية ، بقدر ما هو انتصار قد يتحول الى عقبة كذلك تنضاف قوتها الى العقبة الشاملة التي تمثلها السديمية . فكل مكسب في ديالكتيك الحرية له مآل سلبي واخر ايجابي . انه ايجابي بالنسبة للنزوع النضالي الذي سبقه وكونه . وانه سلبي بالنسبة للنزوع الذي سيلحقه. وهو نزوع عليه ان يتخلص منه ، اي عليه ان يتجاوزه ، وتجاوز الانتصار مسؤولية شاقة اخرى لا تقل عن تجاوز عقبته التي حولتها الثورية الى انتصار .

والابطال وحدهم ، هم الذين يقدرون ، بتعاسة لا تحد وبفرح كذلك لا يحد ، مشقة تحمل مسؤولية الانتصار .. اذ انه بدعوهم هو ذاته الى انتصار اعظم ، وهذه الدعوة موجهة خاصة لتحقيق الانتصار المطلق الذي لن يتحقق ابدا. ان الشعور بالثورية المستمرة ، عن حق وعمق ، هو الذي يجعل الثوري يسخر من كل ثورة جزئية . انه مرهق بدعوة كبرى هي اعتقاده بافجع عبثية للوجود ، وهو ان كل شيء سيؤدي الى نقيضه . فالهدف عندما يتحقق يقلل من عظمة الانتصار فيه شعور مرهق بالخيبة اعمق فاعمق . لان كل انتصار انما يذكر البطل لا بالانتصارات الاعظم التي عليه ان يحققها كذلك ، ولكن يذكره بانه ليس ثمة انتصار نهائي ومطلق، و ن كل انتصار مرحلي انما يوسع ساحة النضال ، ويضخم من مسؤولية المعركة اعنف فاعنف .. وبالتالي فلا انتصار مطلق !!

اي لا راحة من عبء الحرية ، ولا من قلق النزوع ، ولا من تمزق التناقض وهو ان كل منتصرهو منكسر في ذات الوقت ، انه يبلغ هدفا جزئيا ولكنه لن يستطيع الاحاطة بالكل ، لان هذا الكل سيتسع كلما اوغل قلق الثوري في ديجوره .. انه الشيطان بذاته ، هذا الذي يذكر بوجود لاله وعدمه معا اكثر فاكثر كلما تشوف المجاهد لاستغراقه وضمه.

اذا كان هذا صحيحا بالنسبة لديالكتيك الوجود والحرية عند اي انسان ، فهو اعنف ما يكون عند الانسان العربي . اذ ان سديميته المقاومة قد حفلت بجميع السوالب التي تكفي للقضاء على اي بطل ثوري ، وتتحدى في الوقت نفسه ، لخلق اروع بطل !

ولكن هذا البطل ، مع ذلك ، يقاسي من ضلاله ، اكثر مما يهدأ ليقينه. ففي عالم الوجود ، المعدوم كل لحظة ، والمخلوق كل لحظة ، بارادة لا

نعرف سلامها من جحيمها ، ولا تفرق بين الهها وشيطانها ، ليس ثمة يقين . لا حد لكفر الوجدان وايمانه معا . ولا شيء يبعث على اليقين، في حدود غير مستقرة ابدا . ان الثوري مدفوع الا يوقن بما تخلق ثورته . واذا كان له ثمة يقين ما ، فهو ينصب على الثورة المستمرة كحركة .. فيؤمن بحركتها ، ويتجاوز ما تخلق هذه الحركة .. يؤمن بقدرتها على التحقيق ، ويرفض ما تحققه .

وهكذا فان موقف الثوري لا يرفض واقعا خارجا عنه . هذا الواقع محايث له ، متواجد معه . انه يرفضه ، ويرفض ذاته التي ترفض . اي ان سعيه لليقين ، ليس سعيا للاتحاد بموضوع لليقين مستقل عنه. بل هذا اليقين يتمنى لو استطاع ان يكون يقينا به هو ، يقينا بذاته . فهو حركته الثورية ، وهو موضوع هذه الحركة . فالثوري محتوم عليه الا يكون الثوري في عين ذاته، بل هو الثوري بالنسبة لما يستطيع ان يتجاوزه من تحققات ثوريته نحو الثورية في ذاتها .

ومحتوم عليه كذلك ان يناضل في ثوريته مستويات ، ونماذج لهذه المستويات متفاوتة الصدق والاصالة ، متباينة النوعية والقيمة .

انا ضدهم

ان من هذه المستويات مستوى اوليا يبدأ بمعاناته الشاب العربي قبل ان يكتمل وعيه بثوريته . فهو قبل ان يتعامل مع رموز (الواقع الفاسد) في الهيئة الاجتماعية ، يعيش نوعا من الانفصال ، داخل فئة شبه منعزلة متألفة من اندادة وامثاله . وهذا الانفصال لا يعني ان الثوري كان متصلا بالسديمية ، ثم انفصل عنها ، بل انه لما يدخلها بعد . وهو حالة غير محددة ليست بالثورية ولا بالسديمية .

انه يشعر بتفرده ، لا ذلك التفرد الذي يأتي نتيجة تقييم الجماعة سلبيا على انهاجماعة لا تستحق ان تكون ندا له .

انه تفرد الوحشة ، وحشة من لا يعرف هذا الاطار المبهم المخيف الذي يحيط به . ويعبر عن هذه الوحشة بموقف متناقض : انه يرفض هذا (المجتمع) في سبيل (المجتمع الاخر) الذي سينشئه . ومن هنا نراه يقابل المجتمع هذا كفكرة مجردة ، وليس كواقع محسوس . وهو يفترض انه غير موجود ، وان وجوده ، ان كان له ثمة نوع منه ، فهو وجود هامشي ثانوي ، يقبع على طرف قصي من تجربته . فيدعو المجتمع بكلمة تحتمل كل معنى الغياب والحضور معا (الناس) . لان الشاب الثوري في الوقت الذي يعتقد انه قد تخلص من كابوسهم (الناس) انما هو يقابلهم بمنجى ذ تي اخر ، على اساس انه يرفض الناس . وموقف الرفض يفترض وجود ما نرفض . والفرق بين الشاب الذي يمارس الثورية ، وبين الشاب العابث ، هو ان الاول استطاع حقا ان يعي ، ولو جزئيا ، نقطته من السديمية . بينما ينجرف الثاني في لا محدوديتها كأية ذرة فيها . ان غيابهم ، كما قلنا يتضمن كذلك حضورهم . الا ان الثوري الشاب يعاني هذا الحضور بطريقة مأساوية ممزقة ، فهو يأبى ان يعترف بتأثير ما تصبه عليه الجماعة ، لان كل تأثير انما ينطوي على سلب لاستقلاله ، او تهديد للموقف الذي نجح حتى الان في ان يجعله موقفا قائما على الرفض والعزلة . وكل قابلية للتأثر من قبل الجماعة : انما تكشف فيه عن شبه اعتراف بقوتهم ضد قوته ، بمناعتهم ضد رفضه . ولكن هذا الرفض تسلبه كذلك صيغه اكثر نموا وجوديا في التجربة ، وهي صيغة تنطوي على حركة معاكسة من ذات الثوري نحو ـ هم ، وتتمثل له على الشكل الاتي : انا ضدهم .

فان الثوري في الوقت الذي يرفض فيه وجود الناس ، فانه يرفض كذلك وجوده . لا لان هذا الوجود هو شكل اخر من وجود الناس اذ ان كل وجود اخر يتحدد كموقف بالنسبة لوجود الناس ، فهو اذن تابع لصيغة السديمية ، وان كان ضدها .

انه يرفض وجوده الخاص لسببين متكاملين ، احدهما انه يريد ان يتخلص من وجوده المنعزل ، هذا الحالي بكل مضمونه السلبي الموحش. وثانيهما ان الثوري يتطلب حضور الجماعة ، لا بشكلها المشخص وصيغها المنوعة ، بل كعمق سديمي لتجربته النضالية يمنح حدة لكل بعد يستجد في نمو هذه التجربة ، من حيث قيمته الايجابية او السلبية . ان حضور الجماعة يمكن الثوري من اكتشاف مطرد فيها لمجالات نضاليته المتفجرة. فهو في حد ذاته ليس كله حاضرا تلقاء وعيه .. انه كائن غير موجود بصورة نهائية ، ومعنى هذا انه كائن اقرب الى الامكانية من الوجود المليء . فهو يمتلك امكانية الامتلاء ، امكانية الوجود النهائي الذي ينزع الى تحقيقه..

اي ان وجوده قائم على امكانية مجردة ، تحتوي هي بدورها على ممكنات جزئية لا نهائية . فوجوده الراهن اذن هو امكانية الامكانيات . وليس ثمة وسيلة للتعرف على هذه الامكانيات الا بمقدار ما يقوى احتكاك وجوده المجرد هذا بمنبهات الواقع الفاسد ، سواء في حركته نحوه او ضده ..

فاذا كنت انا (ضد ـ هم) فهذا يستدعي ان امارس هذه (الضدية) كفعالية متجهة مني نحوهم . والواقع انني منذ ان انعزلت عنهم ، ورفضتهم فقد استعديتهم علي . ففرضوا علي ان اكون كذلك ضدهم. فالضدية تقوم على مماثلة مبدئية بين الطرفين .. وهي علاقة جدلية غاية في ذاتها . اي ليس لها هدف في القضاء على طرف دون اخر ، لان نفي الواحد يستدعي نفي الاخر ، وبالتالي زوال الحركة كلها . الا ان هذه الحركة باقية ، ولن تنطفيء ، لانها صيغة مؤسسة لوجود الانسان في العالم . غير ان استمرارها لا يعني ثباتها . فهي كحركة تتبع شدة في التوتر تناسب تحولات المضامين المتفاعلة بواسطتها. فكلما نمت التجربة الثورية وحصلت مكاسب وقوى ، وفجرت امكانيات متجددة فيها ، كلما تغير مضمون الحركة وتطلب ذلك وعيا ثوريا جديدا لها ليكتشف معناها بالنسبة لكلية التجربة .

فحركة (الضدية) هذه هي الشكل الذي يتغير في الشدة ، ولكنه لن يتغير في الطبيعة ، واما المضمون المحصل ، فهو خاضع لتحولات كيفية مطردة باطراد عمق التجربة ذاتها . ولكن في لحظة حاسمة من تحولات المضمون لا بد من تحول كذلك لا في شدة الحركة ، بل في طبيعتها ايضا. فقد يتغير اتجاه هذه الحركة وان كانت محصورة بين طرفين متضادين فحسب . ان هذا التغير الاتجاهي قد يحمل زيادة في اثبات طرف ضد نفي في طرف اخر . وبدلا من ان نصطنع ، فنقول مع هيغل ، انها حركة معقولة لانها تتجاوز كل نفي بين الاطراف ، في سبيل تركيب ، وهكذا يصبح السلب ذاته موقتا ، وتصبح الحركة حركة في اتجاه الكون دائما .. بدلا من ان نتصور الحركة على هذا الشكل المعقول الدخيل على الوجود ، نقول ان التغير واقع في مضمون الحركة وفيها هي ذاتها كشكل لهذا المضمون ، وفي هذا المعنى لا يمكننا حتما ان نحدد في المستقبل اتجاه الحركة ، فليست هي بذات معقولية يجعلها اشبه بالنظام . بينما هذه الحركة بالذات هي التي تخلق الانظمة وتهدمها ، فلا نظام لها ، الا انها ليست بذات تصميم مسبق على فعاليتها الخاصة .

كما ان جدلية هذه الحركة لا تشبه جدلية ماركس ، وذلك لان الاطراف عند ماركس محدودة بشكل حتمي وسابقة على نمو الحركة ذاتها . فهي اطراف مادية ابدا ، لا دخل للوعي بها ، خارجية تخضع لهنيهتها من جدلية التاريخ المادية . بينما تمتاز هذه الحركة بانها تخلق التعين . ولا تلحق به . وهي حركة في سبيل التحقق الواقعي ، واقع الحرية ، وليس واقع النظام . فالضدية لا يمكن ان يخرج مسرحها عن ازمة التشكل الفردي الثوري بالنسبة للسديمية الفعل . وفي سبيل هذا التشكل يفتطر الوعي الثوري الى افتراض تعين ما في السديمية ذاتها كيما يحولها الى شيء مختص يستطيع محاورته ومناضلته .

ومن التناقض الفاضح بالنسبة للجدلية المادية ، انها في الوقت الذي تبعد دور الوعي وتجعله يقبع في عتمة هامشية من الحركة ، كيما تعطي الطابع المادي لها ، فانها تفترض بشكل خفي انها حركة نظامية ، لانها تتبع تطورا معقولا اجتماعيا بالنسبة لتطور صيغ الصراع الطبقي ، فمن البدائية الى العبودية الى الاقطاعية فالرأسمالية . فان نفي تدخل الوعي في عملية الصراع الواقعي المادي ، وان نلبس هذه العملية ثوب النظام، اي ثوب المعقولية ، فهذا ما يجعل الماركسية ، في حد ذاتها ، فلسفة تبرير لما هو موجود ، وليس تعليلا للوجود ، اي انها فلسفة بدون فلسفة، تستخدم العقل وتتبرأ منه ، تصطنع الثورية وتؤمن بالحتمية ، تنزع الى الاطلاق بينما هي فلسفة تبرير لانظمة اجتماعية ظرفية لا تتكرر ، تعتمد الماضي لتفسر الحاضر والمستقبل في التاريخ الجدلي... والى اخر المآخذ الفاصلة التي تتعرض لها الماركسية عندما تطرح نفسها كفلسفة متكاملة امام الوعي الاصيل ، ولا تكتفي بمجرد كونها استثمارا طارئا لظروف المجتمعات والامم . فالانحلال الانساني مقابل التضخم الالي المادي الذي وصلت اليه مدنيات الغرب لا يبرر لنا ان نعتقد ان المادة هي السبب والنتيجة ، وانها كما كانت عاملا تهديميا في وحدة المجتمع الانسانية فانها يمكن ، وحدها فقط ، ان تنقذه من تناقضاته ، عندما تتحول الى عقيدة جماهيرية اي عندما يصعد الخط الحضاري ذاته الى درجة المبدأ المطلق المقيم لجميع القيم الحضارية الاخرى .

ثم ان الصراع ، وهو مفهوم انساني مأساوي يتولد من ديالكتيك الحرية والجبرية ، لا يمكن ان تكون له ساحة حقيقية خارج وجدان الفرد المتازم، في الطبقة مثلا . فالطبقة هذه هي شكل اخر عن السديمية يجب مناضلته ، لانه تشكل لا شخصي غفل من التعين ، اللهم الا من الشروط الظرفية الخارجية التي دفعت الى تجمعه . وكلمة (الوعي الطبقي) في حقيقتها عبارة لا تعني شيئا ، وهي التي ما فتيء يرددها الماركسي. لان الطبقة ، وهي هذا الوجود الغفل اللاشخصي ، لا يمكن ان تتحول الى وعي بذاتها الا عندما تفقد تجمعها الطبقي هذا . فوعي الطبقة معناه اكتسابها شخصية ، وبالتالي بروزها ضمن موقف ثوري . وصيغة ، مجردة سديمية ، كصيغة الطبقة ، لا يمكن ان تكون لها شخصية وبالتالي موقف ثوري . ولهذا فان وعيها يؤدي الى تفتتها ، لانها سترجع الى افرادها . ومن وجدان الفرد المتازم سيتولد ديالكتيك الحرية الثورية ، بمقابلته دائما بوجدان الكل الغفل المعتم . فاذا برزت أمامنا طبقة ثورية ما ، فينبغي ان ندرك ان هذه الثورية قد وجهت اولا للصيغة السديمية التي نشأت عنها . اي ان الطبقة حطمت الطبقة كحاجز داخلي. وفي الواقع لا طبقة مع الثورية . انها لا توجد الا حيثما يزول الوعي الثوري ، اي عندما تميع شخصيات الافراد وتتداخل في كل عبودي مظلم آلي .

ان الثوريين لا تصنيف لهم الا انهم ثوريون ، وثوريون لا طبقيون . وكما سبق لنا القول ، فان الثورة انفصال اولا عن اللاتعين ، عن السديمية في الذات وفي العالم المحيط . وهذا الانفصال يتحول الى حركة ضدية ، توجه للذات وللعالم كذلك ، في سبيل التخلص من جذور السديمية في علاقتي الثورية .

وسنتابع هذا التحليل في حينه عندما نتعرض لموضوع الثورة القومية والثورة الطبقية ونكتفي الان بهذه الاثارة فيما يتعلق بموضوع الضدية .

ونعود الى القول ان الضدية ان كانت نجحت حتى الان بفصل الفرد عن السديمية ، اي بابرازه امام وعيه كذات تختلف عن (هذا) ، الشيء غير المحدد المرهق ، فان الضدية لا تستطيع ان تقف عند حد هذا الاقتطاع الاعتباطي من جسم السديمية اللاجسمي.

فالثوري ، عند هذه النقطة الاولية ، قد القي به في هاوية لا قرار لها . وفي الواقع ان عملية الانفصال تنعكس في وجدان الفرد كسقوط مريع ، لا مبرر له ، الا انه حركة ما ، حركة لا تمت الى ميوعة السديمية بصلة ، انها انقطاع عنها ، انفصام . وكل هذه الحركة ما زالت توصف بنقطة انطلاقها الاولى ، اي ما زال لها ارتباطها الدائم بالسديمية .

وفي الحقيقة ان السديمية ليست صفة للاشياء في ذاتها . بل انها اولى مراحل الانفصال ، عندما يحكم الثوري على هذه الاشياء بالعدمية نسبة الى ارادته الانقلابية التي يحياها ولا يعيها تماما . فال «هم» وجود قائم في ذاته ، هو مزيج ، انساني وطبيعي معا ، يمتد من وضعي الخاص ليغرق في عمقية العالم كله . وهو قبل ان اقوم تجاهه بعملية ادراك ثورية ، تهز جذوره كلها ، فانما استقبلته استقبالا حسيا عاديا ، كنت اثناءه مجرد قابلية منفعلة ، كأي جزء انساني من السديمية . ولقد ثبت في ادراكي مجموعة كبيرة لا متناهية من الاسماء ، التي لها رصيدها الاجتماعي المعنوي والمادي الطبيعي المستقل عني. وهي اسماء لا تبقى هكذا جامدة منعزلة . بل انها تقع من بعضها ومني على مسافات تحددها خلقيا او دينيا او سلوكيا او اقتصاديا ماديا . وخلال هذه الابعاد تتفاعل اتجاهات وصفية مختلفة ، تقيم مختلف العلاقات الثابتة بين الاشياء والمفاهيم .

حتى ليبدو لي ، وانا ما زلت في قابليتي المنفعلة ، ان العالم مليء باشيائه وابعاده ومفاهيمه ، وانه كمية كبيرة لا تحد من هذه الاجزاء التي تنتظم كلها في تنسيق سابق على وجودي . وان كل شيء محدود فيه ، ولي ، وبيني وبينه ، حتى قبل ان يعرف هو شيئا عني ، عن شخصيتي ، عن اتجاهي . انني مصنف عنده حتى قبل ان اعرف من اكون انا بالنسبة لي. فلي اسم وكنية ، واب له تاريخه وام لها تاريخها واخوة ، وامة ودين ، وكل الظروف التي يبدو انه امر طبيعي بالنسبة لها ان يولد ضمنها انسان ، دون ان يخطر ببال احد فظاعة المفاجأة لهذا الانسان المولود ، لو كان يعي ، كيف يمكن ان يوجد كل هذا قبله وبالاستقلال عنه ، وعما يريد وعما يختار .

وتظل المحسوسات والكلمات تبني في اعماقه عالما خارجيا عنه من مختلف مراكز التوجيه والارسال ، من البيت ، وجدران البيت، والصور المعلقة ، وروائح الاثاث ، وتنضد الاشياء تبعا لابعادها وتجاورها المكاني، وتدرجها اللوني ، وبروزها الحجمي . وبين هذه المحسوسات الثابتة ، تتحرك قامات ، وتفرقع اصوات في الفراغات ، وتنهل اشارات ، وتتفلطح وجوه ، والوان وجوه ، وتنصب نظرات ، واستطالات تمتد وتقبض عليه، وتحركه ، كما تتحرك هي . وكما تتنضد هذه الاشياء في فراغاتها وتتثبت كخلفية في ادراكه ، لا تلبث كذلك اشياء اخرى حتى تتنضد فوقها ، وتشكل نظاما من العلاقات والمعاني المجردة ، والقيم ، لها صفة الشمول، تخرج من نوافذ البيت الى الشارع الى المدرسة الى العمل ، الى العالم .. الى الله ..

وما ان يصبح الشاب هكذا على عتبة الحياة حتى يكون قد اتخذ دون ان يدري او يختار ، نموذجه المهيأ له كنسخة بين نسخ اخرى لا نهاية لها ، في قلب السديمية . وهذا ماء سميه عقل السديمية ، الرزين الواضع ، بالتربية .

وفي الحق ، ان التربية في مثل البيئة العربية المنحطة ، ما هي الا وسيلة لاستمرار القديم في الجديد ، وتجويف الجيل الصاعد من اوجه الثورية . انها تربية غير مقصودة لذاتها ، تمارسها الجماعة دون ان تعيها ، وكأنها نوع من الدفاع الغريزي عن وجودها المنخور ، تلقاء ما قد يطرأ من عنصر المفاجأة من قبل الجيل الجديد الثوري .

وحتى في البيئات الغربية (الراقية) التي زادت العناية فيها بعلم النفس وتطبيقه التربوي ، فان تضخم هذه العناية ، وخاصة في امريكا لا يدل الا على امر واحد ، وهو التعويض . تعويض عن فقد معنى الفرد الانساني ، كوجود سر له قدسيته ، بعد ان ضاع الفرد في سديم الجماعة. ولهذا اتجه علم النفس والتربية الى تحليل السلوك وذلك بغية المحافظة على الشخصية التقليدية الوسط ،التي توافق عليها السديمية ، ومحاربة كل ما يخالفها ، واعتباره انحرافا او مرضا او شذوذا ، يجب تقويمه واعادته الى الحالة السوية ، وهي الحال التي لا خطر منها على توازن السديمية الذاتي .

ومن هنا نجد ان اول ملامح الثورية تتأجج في ذات الشاب ، الذي مسته الثقافة بوعي ما ، كانخلاع عن النموذج التربوي الذي تلبسه دون ان يدري . ويتضح موقف الضدية في اعماقه قبل ان يتبين موضوعا لها . ولكن المعطيات السديمية التي تقدمها له حياته اليومية العائلية تحتم عليه اول اصطدام رمزي مع السديمية كلها . فهو ضد البيت . ليس في البيت الا .. هم . هم الذين عاصروا طويلا ضجره الطفولي، وشكلوا كابوسا مخيفا لحواسه ، وموانع زجرية (لا تفعل هذا .. لا تقرب هذا .. لا تقل هذا .. لا تنظر هذا .. لا تسمع .. لا تشرب هذا ، لا تأكل هذا .. لا تنم هذا) موانع زجرية تنهال عليه من كل جهة ، من عالم كله سلطات وعبوس ، واصابع تهتز فوق حريته ، واشباح ثقيلة رزينة ، تتحرك كالنواس في الفراغ الاصم .

فالبيت بؤرة مصغرة عن السديمية . انه تجويف قائم في المدينة . له رائحة مضجرة . ظلاله لا تتغير . اشياؤه مبعثرة في زواياه بذوق سقيم ، وقانون صارم معلق في فضائه ، قانون من اجل الطهارة ، وضد النجاسة . الطهارة المادية الصرف ، في الجسم ، وفي الثوب .. واما في الوجود كمعنى ، فهو قبو لشتى الاحاسيس الغريزية المكبوتة، المتآمرة بالحقد ضد البساطة ، بالالية ضد العفوية ، بالتكرار ضد الجدة . ويبرز الشاب هكذا في غاب من المحرمات . كلهم يحكمون باسم الاله ، من اخيه الاكبر وامه الى الاولياء والدراويش ، ومجاذيب الحي وعجائزه الى الجن والشياطين ، والمسابح والعمائم .. الى الشرطي ، والمخبر وجندي الاجنبي .

فهو اذن كائن خائف ، وكل من حوله خائف . والخوف بين الجماعة امان . شرط الا تخرج عن الجماعة فستخاف وحدك . وهناك سلسلة من انواع الشر ودرجات العقاب ستبلى بها .

ان صرخة (الحرام) تشل حركة جسدك ، تقطع الصلة العفوية بين فعالية حواسك وموضوعاتها . وتجمدك هكذا صنما . اذا سار اطرق في الارض . واذا تكلم خفت صوته .

حذار ان تفعل ، ان تقول ، ان .. ان ..!

انت انسان مراقب !

ان عيون كل القوى الخفية تحملق بك ، من اعماقك وحولك ، وفي زاوية من الظلام . وكلهم اقوى منك ، من ابيك الى الجن الى المعلم ،الى عسكر الاجانب ، الى الاله..

انساننا تحت المراقبة . وهو سواء استتر او سفر ، فانه لا ينجو من العيون السرية ، والعقاب المقدر المحتوم ، في الارض وفي السماء . وهذه الصيغة (موجود تحت المراقبة) هي التي سترافق انساننا ، وتبطن سوداويته من داخل وتؤسس لها جوهرا اسود الى الابد ، سترافقه في جميع تطورات سلوكه المعادي او الثوري.

ان السديمية تنصب شركا وعقابا لكل من سيخرج عن طاعتها العمياء لكل من سيتمرد ويحاول ان يكون مشروع وجوده الخاص . ان صيغة (موجود تحت المراقبة) هي علة كل ازدواجية في شخصية انساننا .

فكل القيم والمفاهيم التي تلقى ، انما يفسر عليها قسرا ، فاما ان ينسجم معها تحت تأثير العادة ، عادة الذل والخضوع والتسليم ، واما ان يرفضها سرا ، لا لشيء سوى لانها نتيجة قسر وجبر ، لا نتيجة وعي ثوري وتقدير لقيمتها الحقيقية . فيتحول في اعماقه الى فوضوي حقود يمارس كل اضداد القيم التي اقر عليها ، طالما شعر باختفاء عين المراقبة عنه . وهذه هي الفضيلة الشكلية التي انتهت اليها اخلاق السديمية . انها لا يهمها الا ما يبدو من انسانها ، واما قبيته وزواياه واعشاشه السوداء الهاربة ابدا من النور والجرأة ، فهي لا يمتد اليها سلطانها .

وهذا هو لانسان الهجين الذي اضاع معا قيمة الخير والشر . الكائن الخائن ، المراقب ، المتآمر الحقود . انه لا يرفض السديمية واخلاقها المزيفة ، لانها مزيفة . كما انه لا يسلك ما يضادها في سره لقيمة هذا الشيء في ذاته . بل هنا علاقة ميتافيزيقية هي علاقة السيد بالعبد . ان العبد غير الثوري ، لا يعي عبوديته ، ولذلك لا يتمرد عليها ، وهو يمارس حياته المشروعة بشكل لا مشروع بالنسبة لقانون السيد . فيفقد بذلك ما هو مشروع وما هو لا مشروع ، وبالتالي يصبح بدون مسؤولية بالنسبة لصاحبه . فلا يمكن لعبد ، ان يمارس اطلاقا الثورية وهو عبد . ولذلك كانت حياته السرية ، بما فيها من عبثية وتمرد ، ليست ذات قيمة على الاطلاق ، كما هي حياته السافرة كعبد خاضع .

وهذه العلاقة الوجودية (السيد والعبد) في الواقع تنتظم كل العلاقات الانسانية والاجتماعية في وجود السديمية . انها العلاقة القائمة بين كل طرفين متفاوتين في القوة التي تمنحها السديمية لاحدهما دون الاخر ، بحسب وقوعه في درجة من انظمة القيم فيها. والشاب الجديد، يكاد يحيا في جحيم العبودية هذه ، فهو مركز تلتقي عنده كل انواع السيادات ، من الام والاب ، والاخ الاكبر ، والمعلم ، والاله وعالم موانعه ومحرماته كلها . ومن هنا كان عجز انسان السديمية عن ان يبرز مستقلا، وان يعامل الاخرين كانداد له . فهو اما ان يكون سيدا او عبدا . وهو دائما يقع في درجة من تسلسل القوى ، وليس تسلسل القيم . لان كل قيمة في مثل هذا المجتمع الهرمي انما هي قوة عجماء ليس الا . ولهذا فمثل هذا الانسان ، لا بد ان يوجد من هو اقوى منه ، ومن هو اضعف. فكان سيدا لما دونه، عبدا لما فوقه. وبهذا الشكل، فان كل حرية يكتسبها في سيطرته على من هو دونه ، يفقدها تلقاء جبروت من هو اقوى منه ، فضلا عن ان مثل هذه الحرية، سواء حرية الطغيان او حرية الاستسلام ، انما هو شعور مزيف يصاحب درجة تضخم القوة العجماء او تقلصها عند صاحبها . وليست هي تلك الحرية التي يعانيها انسان تتفتح امكانياته الحقيقة ، وتمنحه كرامته في عين ذاته .

ان الانسان في علاقة السيد والعبد انما يختلس الاحساس بوجوده ، ويسرق حريته ، ضمن مجالات من الفعالية الشاذة المستترة ، التي لا تستطيع ان تتكون الا عندما تلغي وجود الاخر . وهو الغاء جبان كذلك ، لا يواجه موضوعه صراحة ، بل يلتف عليه بسلوك النفاق . تشهد على ذلك كميات من الكلمات المترادفة التي يتبادلها كل انسانين يلتقيان في مناسبة وجها لوجه ، انها سلسلة من الفاظ الزلفى والتقرب واظهار الحرص على صحة الاخر وراحته وصحة اولاده واولاد اولاده . وما يتبعها من الفاظ الحمد والتبجيل وتعظيم الاخر ، عن حق او غير حق ، ثم مباشرة تلك المناورة الخبيثة بينهما ، في سبيل ان يتعرف كل طرف على مصائب وكوارث حلت في الاخر ، ليحصل افتراق ثم التقاء اخر . افتراق عندما يتأكد الواحد من ان آلام الاخر اكثر من الامه . واتفاق عندما يعي الطرفان انهما متألمان حقا . وانه لم يحصل شيء ينال من العادة . والعادة او الحال السوية هي اننا كلنا متألمون ، و بالاحرى منسحقون . انه وضعنا الميتافيزيقي العام الذي تعبر عنه هذه الجملة وهي لازمة الختام في كل مفصل من مفاصل الحديث « الحمدلله على كل حال ، الذي لا يحمد على الشر سواه ! »

وبعد ان يطمئن الاثنان ، طرفا المحاورة اليومية في وجود السديمية، على ان الانسحاق ما زال هو هو ، او انه اشتد ، بالنسبة لكليهما ، وانه لاسعادة طارئة نزلت على احدهما من السماء ، او طلعت عليه بكنز من الارض والجان ، او بمنحة من القدر ، يتحول الحديث الى الاخرين الغائبين . وهنا ينوب قناع اللطف المزيف والحرص المتبادل المصطنع . ويبدأ الخوض في خصوصيات الاخر والتهامه . فمن التلذذ والتشفي بالمبالغة بعرض مصائبه ومشاكله ، في عائلته او عمله او مع اصدقائه ، الى حسد مبطن بحقد وحشي ، ان كان له ما يحسد عليه من نجاح او سعادة طارئة .

والحق ان النجاح الذي قد يصيبه افراد قلة محظوظون في مثل هذا المجتمع السديمي ، انما لا يعني في اكثر الاحيان الا ان هذا الانسان قد ادرك القوانين العضوية لتكوين السديمية ، فآمن بها واخذ يستثمرها لصالحه . ومن يقال عنه انه ناجح ، باللغة اليومية للسديمية ، فمعنى هذا انه نجاح في عرف السديمية .. والناجح هو الذي استطاع ، اكثر من غيره ، ان ينسجم مع نموذج السديمية المطلوب ، السري ، غير المصرح به ، اي من كان افظع سديمية من الاخرين .

وعندما يصمت المتحاوران ، تشخص عيونهما ، وتتكشف كتلهما على مقاعدها وارائكها ، والزمن امتداد كسول لا نهائي ، تسمع طقطقة المسابح، او اصطدام الكؤوس ، او غرغرة النراجيل ، والشهيق والزفير في حركتهما البليدة ، وهناك من يجشأ او يسعل ، او يمخط في منديله ، او تعبث يداه باصابع قدميه القذرتين ، او يعسر تنفس احدهما من تخمة الخبز واللحم والسمن .. في معدته ، هذا الجوف الذي يبتلع كل شيء معوضا عن ضياع انسان كامل .

وتنتهي المحاورة : هكذا الزمان ! لا حول ولا قوة الا بالله !

وتجتمع صرخة صماء في اعماق الثوري الجديد : انا ضدهم ! وغثيان زخم يتدافع في احشائه .

والمكان ، في البيت ، ضيق ، مشغول بالناس والاشياء . وعندما تهدأ حركة الاقدام والالسنة والبطون والانفاس في الليل ، يشخص الثوري المراهق في الظلام . انه وحده الان ، والمراقبة ماتت ، انسحبت الى اطراف الكون ، والله نفسه لن يستطيع ان يعثر عليه ، ههنا تحت الغطاء ، وحواسه مدفونة كلها في السواد . ولكن حشرجة بهيمية ، ولهاثا مسعورا ، يتعالى اليه .. من هناك ، من المكان الضيق وفيه زاوية لابيه وامه . ان المكان لن يتسع لاكثر من هذه الاجساد المتدرجة في الكبر .. لن يتسع لاخ جديد . ولكن المال والبنون زينة الحياة الدنيا ..

وقد تهدأ المعركة من الزاوية ، ويرفع رأسه من سواد الغطاء. ويتحرك حجر ما قربه ، ويلمع ثمة لحم تحت نور القمر او ذبالة الشارع ... انها ساق اخته ، وتصطك اسنانه ، وينكور على ذاته ، ويبدأ بالارتجاف: حرام .. حرام ! ولكنه يظل مرتجفا ومتكورا لاهثا .. وعندما تهدأ حركته السرية تحت الغطاء ، واثر شخير الاب ، ولمعة اللحم ، وجمود القمر في كبد الافق البارد .. يبدأ بحلم اخر : انه ضدهم ، ضد البيت ، ضد

ـ التتمة على الصفحة ٤٩ ـ

أزمة البطل المعاصر

تتمة المنشور على الصفحة ٣٢

الاستاذ ، ضد الجاسوس..ضدالالهة . .انه سيغير العالم .. انه حر .. حر .! ويظل كل شيء في المكان الضيق هامدا جاثما .. ويغفو الثوري المراهق في هدأة كالاطفال .

وتتكرر الليالي . و.ما النهار فملك للشمس الساطعة الصلدة التي تكشف كل شيء ، وفي القعر تلتف المدينة على ذاتها ، المدينة القديمة الترابية ، في دهاليز حلزونية . والارض غبار وحرارة،وتراب وروث،دواب. وكائنات ، مختلطة الازياء ، تدب في كل الاتجاهات .وتبحث العينان ، عن لمحة لحم طري تنسرق من تحت الجلابيب السود .. غير ان صراخ الباعة على كل البضائع ، بتلك الاصوات الغليظة المبحوحة ، والكلمات البلدية السقيمة .. واجهزة المذياع ، الاف من الحناجر الحديدية ، تنقل الزعيق والنعيق ، وايقاع الموت والنوم .. وسل الذل ينسرب اليه مع كل نفس ، يغبه من فضاء العالم الغباري المزدحم حوله ، وهو نقطة شاردة فيه ، تسب الناس ، تطلب المرأة ، تحلم بالبطولة ، تشتم الاستعمار والخونة ، وتتحسس الجيب الفارغة ، تحتقر الصداقة .. وتبحث عن المجهول ، عن كل شيء غير موجود ههنا ، غير لامع وقذر وغباري وسطحي.

هكذا تنبثق ثورية المراهقة كقاعدة جذرية لكل ثورية اخرى في شبابنا العربي . وهي قاعدة ، ليس لديها مشروع ما ، سوى انها الرفض والتقزز والاحتقار . والاتجاه الايجابي الوحيد فيه ، هو طموح كبير نحو تغيير العالم ، نحو محو مخطط وايجاد مخطط اخر . اما ما هو هذا المخطط ، فانه لا يعنيه في شيء . وهو ذاته ليس سوىامكانية شاملة مجردة ، لا يمكن تحديدها قبل ان تصطدم بتشيؤات السديمية ، وتتفاعل معها ضمن تجربة واقعية مليئة بعنصر المفاجأة والاضطراب .

وهذه الامكانية هي التي تلقي وجوده الى افق المستقبل . ان الثوري المراهق لايشحن وراءه اي ماض خاص به . وانما هو يشحن ماضي السديمية كلها ، ماض يتلبس دون ارادته . فالزمان هكذا محل مرهق ، انه الازل الاسود كله الذي عاشته امه بدون حرية . والحاضر ، ماهو الا لحظة هاربة ، ولكنها كذلك مثقلة بكل ابعاد الضجر والمقاومة الوحشية. فلم يبق اذن الا ان يرتمي الثوري الى المستقبل ، وهو مجرد افق اشبه بالسراب ، شيء لم يوجد بعد . وهو يبدو لصعوبة بلوغه ، ولانه لحظات تتجاوز ذاتها باستمرار ، يبدو كانه ابد مطلق . فالثوري هكذا معلق بين عدمين لانهاية لهما ، عدم الماضي ، وعدم المستقبل . وهو نفسه ليس شيئا على الاطلاق . انه لم يتحدد ضمن اي اطار بعد ، وان كان مصنفا من قبل السديمية ، كشاب عابث يجب مراقبته واضطهاده . انه بالنسبة لامكانيته المجردة الشاملة ، ليس شيئا بعد على الاطلاق . انه هذه الارادة التي تنزع به نحو التكون . ولكنه تكون لا ملامح له ، لانه لم يتحقق بعد . وكلما تحقق جزء منه ، نزع هذا الجزء نحو متابعة التكون ، كأنه لم يكن هو شيئا .

وهو في ارتباطه بالسديمة ، يحدد نفسه مبدئيا ضمن علاقة الضدية. والضدية ، ليست تقييما اخلاقيا او وجوديا . انها محاولة لتأكيد طرف ضد اخر . والطرف هنا هو وعي المراهق الثوري . وهو كما تبين لنا عندما يؤكد ذاته ، ينفي السديمية ، باعتبارها هنا ،لكل اللاشخصي ، ويثبتها كشيء مشخص له ملامحه ، كيما يستطيع مناضلته . وكل وجه تبرز به هذه السديمية انما يحمل معه سواد العالم وغموضه كله . وهو يقوم تلقاء وعي الثوري كسلطة لا حد لجبروتها .

واول ماتتشخص له هذه السلطة ، في عائلته ، كما رأينا . وتظهر العائلة للثوري ، مجرد علاقات غريزية ، مغلفة بهالة من القدسية . وهي اقسى ، مايبعث في نفسه ، على الضجر . انها تكرار في السلوك ، والحركة والفعل والتأثير عليه . وهي حضور مفروض عليه ، دائم وصارخ . حضور يجرد كل كائن من سريته ، ويقشع من حوله هالته الذاتية . ويتبادل افراد العائلة بينهم كل مايحرمونه على الاخرين . ويخرجون بمباذلهم واقذارهم وتفاهتهم ، تلقاء بعضهم بعضا . ويحس المراهق بمدى التناقض بين حقيقة السلوك الانساني ، عندما يتحرر من عين المراقبة في البيت .. فليس هو الا سخافة وتكرارا وابتذالا وبين اصطناع القيم الرزينة في الخارج .. تحت عيون لا نهاية لها ، من المراقبة والموازنة والنقد .

وفي الواقع ان مرحلة المراهقة هي مرحلة ثورية بالنسبة لاي انسان وهي لاتكتفي بان تمارس هذه الفعالية ضمن جدران البيت وافراده المعدودين ، بل تتعداها الى الشارع ، والمدرسة والمجتمع .. حتى تبلغ العالم الميتافيزيقي بكل قيمه . من شك ويقين ، واحتقار وتهيب ، وطموح عاطفي او فيض حلمي خيالي من الامل والحب الغريزي .

بيد ان هذه الثورية لاترجع الى علة حيوية اكتسبها الطفل من المراهقة وهي ظهور الوظيفة الجنسية وما يتبعها من انفعالات وهيجانات نفسية . انها ثورية وجودية قبل كل شيء ، تشمل الثورية الجنسية وغيرها ، ولكنها لاتقف عند حدودها فقط . فالمراهق ، يعاني ازمة خلق وجوده حسب تصوره الخاص . وهو في حقيقته كائن غير موجود بنظره الشخصي . واذا كان يملك ثمة وجودا ، فان مسؤوليته تقع على عاتق السديمية لانها هي التي اكسبته اياه من خارج في مرحلة لم يكن يملك فيها اية مقاومة او وعي لامكانياته ، في الطفولة .

فهو يثور ضد هذا الوجود المزيف ، فيه وفيمن حوله . وهو يثور لانه لم يوجد بعد وجوده الخاص . فما زال مجرد امكانية مجردة ،تنزع الى التحقق ضمن امكانيات مشخصة لها ملامحها ومسؤوليتها . وهذا النزوع ، هو في حد ذاته ، حركة الثورية الاساسية عند المراهق لان كل اتجاه نحو التحقق انما يملك قدرةخالقة . والخلق لايعني الاستمرار في اتجاه الشيء الموجود السابق . ومن هنا كان لابد من مقاومة هذا الاستمرار وتحطيم اطاره . وادخال الشكل الجديد ، ومضمونه المبدع . فالمراهق ينطوي على وجود في المستقبل ، كله امكانيات لايبررها الان الا وجوده كأمكانية مجردة مطلقة . وهذه الامكانية هي الحرية قبل انتكتشف اهدافها ، وتمارس اختيارها ، وتلزم حاجتها باية مسؤولية .

ان استشراف المستقبل ، والتامل فيه ، هو الذي يكسب وجود المراهق شفوفا عاطفيا ، وشاعرية وميلا صوفيا للعزلة . هناك يستطيع انيتامل حريته وهي بمعزل عن كل مراقبة او عقبة ، ومخلوقات هذه الحرية التي

طبعت على مطابع :
دار الغد للطباعة والنشر
تلفون ٢٢٩٢١

ستتحرك في فلك مستقبله يوما ما . ويرى علماء النفس ان المراهق يعاني نقصا كبيرا في فهم الواقع ، وبالتالي في التلاؤم مع مقتضياته . وهم بالطبع لايقصدون واقعا اخر غير السديمية . بينما كان المراهق في حقيقته انفصالا عن السديمية ، وثورة على معطياتها المختلفة ، وان عجز عن التلاؤم مع واقعها ، فهو لانه يرفض هذا الواقع مبدئيا . انه لايريد ان يكون نسخة عن وجود ليس من صنعه ، وان مازال لايدري ماذا يريد ان يكون هو حقا ، فيوجوده الخاص ذاك .

والامكانية المجردة التي ينطوي عليها وجوده الموقت هذا ، يصاحبها ايقاع عاطفي جمالي . ولذلك كانت المرأة رمزا لحريته المطلقة التي يستشرف تحقيقها في المستقبل . فالمرأة ، كجنس مباشر ، ابعد ماتكون عن تصور المراهق . ولكنها كرمز فانها تنطوي على كل ممكنات السعادة بالنسبة اليه . وهو يعاني الشوق اليها باسلوب الفنان والشاعر . انه يرى فيها نشوته المفقودة ، كانسان مسلوب الجسد والواقع . ومظهر الطهر والتعفف الذي يتبدى به سلوك المراهق تجاه المرأة ، لايعبر ، كما يريد علم النفس الجنسي ، عن الشعور بالخيبة للتكيف مع العملية الجنسية ، بل انه يرمز للبراءة التي ينشدها المراهق في كل شيء .وهي البراءة التي ستعمق معانيها ، ويتضح جوهرها ، كلما وعى الثوري قضيته . انها اساس كل الاخلاقية الثورية عندما يستكمل الثوري شروط وجوده كثوري اصيل .

ومع هذا فالمراهق يتمنى الفوز بجسده ، كما يتمنى الفوز بوجوده الخاص ، وجسده ، في حقيقته ، هدف عياني كبير ، على حريته انتتغلب على عقبته ، وان تحوز عليه كقاعدة تربطه بالارض والحس الجميل .

والمرأة كما هي رمز لحريته في مستقبله ، فانها كذلك لها كيانها المادي الذي يمارس تلقاءه فعالية وتاثيرا واقعيا ايجابيا . غير ان المرأة التي يتمناها ، لاتمت لعالم السديمية بشيء . والمراهق العربي اكثر مايحتقر من واقع السديمية ، هي المرأة المكفنة بالحجاب ، والمتخلفة عن عالم الوعي والثورة ، والمحتجزة وراء استرة البيت ،وخلف مفاهيمه الحرام . انه يطالبها بمثالية ثورية غير قادرة عليها . ولهذا فما يلبث حتى ينحرف الى بائعات اللذة ، عندهن يحيا الثوري المراهق مأساة الجمال الطاهر البريء . فهو من جهة يحطم قاعدة اجتماعية في الحرام ومن جهة اخرى يهين المرأة التي لم يتمكن ان يحولها من مجرد مثل اعلى في خياله الى عالم الارض والحقيقة .

ان معاشرة البغايا ترمز الى التشفي المحترق . وهي بدء للخيبة التي اخذ يعانيها الثوري كلما اصطدمت ارادة حريته بمناعة الواقع الصلد . وكلما حاول ان يحطم من مصيره الرتيب في بحران السديمية، ويؤكد لذاته ايقاعا بطوليا خاصا .

وخيبته في المرأة ، تتبعها خيبة افظع اثرا . فانه لايلبث حتى يكتشف نظام التعامل المادي في السديمية . فالى جانب الناس المغلقين ، توجد اشياء مادية ، الات وادوات ، تشغل حيزا نفسيا ومكانيا كبيرا في حياة السديمية . وسرعان مايكتشف كذلك ان سلم القيم مقلوب ، وانه يبدا من هذه الجمادات الى خالقها ومبدعها الانسان . والناس مشغولون باستعمال هذه الاشياء ، ووراء صيغة الاستعمال هذه تتلاشى كل ملامحهم الانسانية ، ويتحولون الى طبيعة مستعملاتهم ذاتها ، اي انهم يصيرون الى اشياء اخرى ، لها تعادل وجودي واحد ، وتشابه في الملامح ، وتجانس في التقييم .

وبهذا النظام المادي تتصل كذلك مفاهيم السياسة . فان اكبر منفذ لصيغة العلاقة السديمية « السيد والعبد » هو المال وما يتبعه من نفوذ اجتماعي وسياسي . وفي السديمية العربية ، ليس ثمة وسائل طبيعية للحصول على القوة المادية . انها كلها تتبع نظام العلاقات في الطغيان والاخضاع . وهو طغيان يستمد قواه من وضع المجتمع الهرمي الذي يمثله الاب في العائلة ، والرئيس في العشيرة ، او الزعيم في الحي والمدينة ، او الشيخ في الطائفة وكلها تؤلف طبقيات تشتق نظامها من وظيفة سيادية رجعية ، تحيط نفسها ببرقع القدسية ، وتكاد تعطي لكيانها صفة الديمومة والخلود ، حتى تصبح عقيدة اشبه بالعقيدة الدينية ذاتها. ان الالهة والمستعمر والمال هي الرؤوس الثلاث لهرم السديمية ، امجتمعة في رأس واحد هو السيد المطلق ، هو الطغيان ، هو الجبروت اللاشخصي الذي يحكم ذاتية السديمية واوضاعها اليومية وعقائدها الميتافيزيقية ، وعلاقاتها المختلفة بين افرادها النسخ . وهي التي حلت مكان الالـه الديني القديم الاصيل . ونقلت اليها قدسيته وسيادته .

ان معبود السديمية يتمثل لها في الاشياء ، وان صراعها وطقوسها تبدأ من الاشياء لتنتهي بالاشياء . وليتها كانت من صنعها . انها الات ومستعملات ، وادوات ترفيه اتت مع الاجنبي . ان لها ذات قوته ، وقدرته على امتصاص انانية السديمية ، وتجفيف نفسها ، ان تبقى لها هذا النسغ خلال الف عام من الهجنة والعبودية .

والثوري المراهق تلقاء هذه العملقات اللاشخصية الوحشية ، التي تهاجم وعيه البكر باستمرار ، تنتابه شبه خيبة مطلقة ، فينكفيء على ذاته ، شبه منحرف الى الفردية الهدامة ، الى التشفي المسروق ، الى الحقد الافعواني . ويتحول هنا حلم البطولة ، الى حلم بالموت ، موت غريب رائع ، يعطي له قيمة لم تعطه اياها الحياة .

ان هذا الموت الخاص ، الذي يتأمله الثوري الشاب ، لايبعث على الخوف او الالم او التعاسة . بل كثيرا ما احب الثوري الله . انه الم نضالي خائب . وهو يريد ان يموت ، لا لسبب معين . كانه يطلب الموت لذاته ، كما يطلب الثورةلذاتها . حتى ان مثل هذا المصير يبدو له انه بطولة جديدة ، انه هدف ايجابي ، يحقق له تفوقا ما . وهو كذلك تفوق مبهم ، في ميدان منافسة مجهولة .

ولقد علل علماء النفس كثرة حوادث الانتحار عند المراهقين بارجاعها الى الطبيعة العاطفية الاسيانة التي يملكها عادة الشاب الصغير ، وتدفعه بدون روية الى القضاء على حياته . بينما يتراءى لنا نحن عندما نعالج المراهق العربي الثوري ، ان الحلم بالموت صيغة مؤسسة لبنية وجوده ، وليست ظاهرة انحراف ، او حادثة شاذة تحدث اثر خيبة عاطفية . انها رمز مأساوي لطلب المطلق في الحرية . وهو رمز يعني في الوقت ذاته ، احتقار الحياة اليومية ، ورفض وجود السديمية . ولا يعني اية خيبة ما من الانسجام مع مقتضيات السديمية . لان هذا الثوري اليافع لم يمارس ، في الحقيقة ، اية فعالية عيانية ضد واقع السديمية العياني . وهو مازال في تشوقه للمطلق ، امكانية مجردة ، بدون اهداف مشخصة فعلا .

وموت المراهق ، هو صورة مصغرة عما سيكون عليه حلم الثوري كذلك بالموت البطولي . (١)

دمشق

مطاع صفدي

(١) نقف عند هذا الحد من تحليل الثوري العربي المعاصر دون ان ينتهي الموضوع طبعا فانه ستليه صيغ اخرى وذلك في الكتاب الاصلي الذي سينشر قريبا . وشكرا للاداب .